القصص الديني
الحلقة الأولى
قصص الأنبياء

عيسى بن مريم

عبد الحميد جودة السحار

١٦

القصص الديني

الحلقة الأولى
قصص الأنبياء

عيسى بن مريم

تأليف
عبد الحميد جودة السحار

الناشر
مكتبة مصر
٣ شارع كامل صدقي - الفجالة

١

رَفَعتِ امْرأَةُ عِمْرانَ وجهَهَا إِلى السَّماءِ وكانت حاملا ، وقالت :

ـ يا ربِّ ، لقد نذرت لك ما في بطني ؛ سأَجعلهُ في خدمةِ بيتِ الْمَقْدِس ، يعبدُك النهارَ والليل ، ولا يترك العبادَة أَبدا .

ومرَّت الشهورُ ثم وضعتْ ، فجاءَ المولودُ بنتا . فرفعتْ رأْسَها إلى السماء وقالت :

« ربِّ ، إِنِّي وضَعتُها أُنثى ، واللّه أَعْلَمُ بما وضَعَتْ ، وليس الذكر كالأُنثى ، وإِني سمَّيْتُها مَرْيم » .

وضمَّت ابنتها إلى صدرِها في حَنان ، ثم نظرت إلى السماء وقالت :

ـ ربِّ ، احفظْها وأَبناءَها مِن الشيطان .

وانتظرتْ حتى استطاعتْ أنْ تنهض بعد الولادة ، فحملَتْ مريمَ وخرجتْ إلى بيت الْمَقْدِسِ لتُسَلِّمَها إلى العُبَّادِ المقيمين به ، ولتجعلَها خادمةً من خُدام المسجد . لقد نذرتْ ذلك إذا أعطاها اللّه ولَدا ، وقد وَهَبَها اللّه مريم ، فكانَ عليها أَن تُنفِّذَ نَذْرَها .

٢

كانتْ أُمُّ مريمَ ابنةَ إِمام المتعبِّدينَ ببيت الْمَقْدِس ، وكان نَبِيُّ اللّه زَكريّا زوجَ أُختها ، لذلك لما جاءَتْ بمريمَ لتُعطيَها للمتعبِّدين لتعيشَ معهُم فى المعبد ، أَراد زكريَّا أَن يأْخذَها لأَنه زوجُ خالتِها ، وأَرادَ رجالٌ آخرون أن يأخذوها . فقال زكريا أنا أحقُّ بها .

فقال أحدُ الموجودين :

ـ ليسَ أَحدٌ أَحقَّ بها من أَحد ، كلُّنا هنا نخدِمِ المَعْبَد .

فقال زكريا : بماذا ترضون ؟

قال أحدُهم :

ـ نُلقِى بأَقلامِنا فى النَّهْر ، فَمَنْ جَرى قلمُهُ ضَدَّ التّيار فهوَ الغالب .

فذهبوا إلى النهرِ ، وجعلَ كلٌّ منهم على قلمِه علامة ، وألقَوا الأَقلامَ فى الماءِ ، فجرت الأَقلامَ كلُّها مع التيار ، وجرى قلمٌ على خلافِ الأَقلام ، فلما أخرجوه ظهَرَ أَنّه قلمُ زكريَّا .

فأخذها زكريا وكَفَلها وتعهَّدَ بتربيتها .

٣

كبرت مريمُ وهى فى رعاية زكريا ، وقد خصَّص لها مكانا فى محراب المعبَد لا يدخُلُه سِواها ، فكانت تعبد اللّه فيه ليلَها ونهارَها .

واشتهرتْ مريمُ بين أهلِها بالصَّلاح والتَّقوى ، وكانت أَعْبَدَ أَهلِ زمانها ، فكان الملائكةُ يزورونها في مكان عبادتها ، ويُعطونها فاكهةً لم يُر مثلُها . وكان كلما دخل عليها زكريَّا المحرابَ وجد عندها الفاكهةَ الفاخرة ، فيقول لها :

ـ يا مريم ، مِنْ أَينَ لكِ هذا ، ما خرجتِ أو تركتِ مكانَكِ؟

فتقول له : هُوَ مِن عندِ اللَّه ، إنَّ اللَّه يرزقُ من يشاءُ بغير حساب .

كان زكريا نبيا ، وكان يعرفُ أنَّ الملائكة تزورُ الصَّالِحين ، فكانَ يصدِّقُها .

وجاءَت الملائكة إلى مريم وقالت لها :

ـ يا مريم ، إنَّ اللَّه اختارك مِن بين النساء لِتأْتي بولدٍ عظيم . وسيكونُ هذا الولدُ نبيًّا شريفا ، يُكلِّم

الناسَ وهو في مهده ، ويدعوهم إلى عبادةِ اللَّه وحدَه لا شريكَ له . يا مريمُ أَكثِري من العبادةِ والركوعِ والسُّجودِ لِتستَحِقِّي هذه الكرامة والنعمة .

فقالت مريمُ وهي تنظرُ إلى السماء :

ـ ربِّ ، كيفَ يكون لي ولدٌ وليس لي زوج ؟

فقالت لها الملائكة :

ـ إنَّ اللَّه قادر ، يخْلقُ ما يشاءُ ، إذا قَضَى أَمْرا ، فإنَّما يقولُ له كُنْ فَيكُون .

٤

كانت مريمُ تعبدُ اللَّه الليلَ والنهار ، وما كانت تترُكُ المسجدَ إلا لضرورة ، وفي يوم خرجتْ مريمُ لقضاء ضرورة ، وانفردت وحدها شرقيَّ بيتِ المقدس ، وفيما هي وحيدة ، إذ وجدتْ أمامَها رجلا ، ففزِعتْ منه ، وقالت له :

ـ إنّى أعوذُ بالرحمن منك ، من أنت ؟

فقال له الرجل :

ـ أنا رسولُ ربِّك ، ولستُ ببَشر ، ولكنى مَلَكٌ بعثنى اللّه إلَيك لأَهَبَ لك غلامًا زكيا .

فقالت مريم :

ـ كيف يكون لى ولد ، وليس لى زوج ، وأنا شريفة طاهرة؟

فقال المَلَك :

ـ لقد وَعَدَ ربُّكِ أن يُعطِيَكِ غلامًا مِن غَيرِ زوج ، وهو عليه هَيِّن ، فإنه على ما يشاءُ قدير .

إنَّ اللّه سَيَجْعَلُه علامةً ودليلا على كمال قُدْرته ، فإنّه خَلَقَ آدمَ من غير أبَوين ، وسَيَخلُق ابنَكِ مِن غير أَب .

٥

اعتَزَلَت مريمُ الناس ، فلما شعرَتْ بآلام الوضع ذهبتْ إلى جذْع نَخلة ، وأَسنَدَت ظهرها إليه ، وهى تَتَخيَّلُ ما سَيَقولُه الناسُ عنها عندما تعودُ إليهم وعلى يديها طفل ، مع أنها كانت معروفةً عندهم بأنها من العابدات الصالحات .

« قالت : يا ليتَنى مِتُّ قبلَ هذا ، وكنتُ نَسْيًا مَنْسِيًّا » .

عندئذ سمِعت صَوتَ الطفل المولودِ يتحدَّثُ ويناديها من تحتها :

ـ لا تَحْزَنى .

دهِشَتْ مريم وتَلَفَّتتْ ذات اليمين وذاتَ الشِّمال ، فلَمْ تَجد بجوارِها أَحدًا ، فعلِمَتْ أَنّهُ الطِّفل الذى وَلَدتْهُ حديثا . واستمَرَّ الطِّفل يقول :

« فهُزِّى إليكِ بجِذْعِ النَّخْلَة تُساقِطْ عليكِ رُطَبًا جَنِيًّا ، فكُلِى واشرَبِى وقَرِّى عَيْنا ، فإمَّا تَرَينَّ من البشرِ أَحدًا فقولى : إنِّى نَذَرْتُ للرحمن صَومًا فلنْ أُكلِّمَ اليومَ إنسيًّا » .

٦

قامت مريمُ وحملتْ ابنها ، وسارتْ حتى وصلتْ حيث كان الناس ، فلما رأوْها تحملُ عيسى ، غضِبُوا وحزِنُوا وقالوا لها :

ـ يا مريم ، لقدْ فَعَلتِ أمرًا عظيمًا مُنْكَرًا ، وما كنَّا نظنُّ أن تَفْعَلى ذلك ، لأَنَّ أباكِ كان رجلا صالحا ، ولأَن أُمَّكِ لم تكنْ امرأةً سيئة ، وكنتِ فتاةً عابدة ، فما كنَّا نظنُّ أنْ يَحْدُثَ هذا منك .

فأشارتْ إليه ـ ولمْ تفتحْ فمها بكلمة .

« قالوا : كيفَ نُكلِّمُ مَنْ كانَ فى الْمَهْدِ صَبيًّا ؟ »

هَلْ تَسْخَرِينَ مِنَّا يا مريم ، وتَسْتَهْزِئِينَ بنا ؟

ونظر الناسُ بعضُهم إلى بَعْضٍ يَتغامَزون . وإذا بالطِّفْلِ يُفاجئُهم بالكلام .

« قال : إنِّى عبْدُ اللَّه ، آتانِىَ الكِتابَ وجَعَلَنى نبيًّا . وجعلنى مُباركًا أينما كنتُ وأَوْصانِى بالصَّلاةِ والزَّكاةِ ما دمت حيًّا . وبرًّا بوالِدتى ولم يجعلْنى جبَّارًا شقيًّا ، والسَّلام علىَّ يومَ وُلِدتُ ويومَ أَموتُ ، ويومَ أُبعَثُ حيًّا » .

٧

كَبِرَ عيسَى وصارَ يلْعَبُ مع الأَولاد ، وكانَ يقولُ لأَحدِهم :

ـ تريدُ أَن أُخبرَكَ ما خبَّأَتْ لكَ أُمُّك ؟

فيقول الصبى : نعم .

فيقول له عيسى : خبَّأتْ لك أُمُّك تُفّاحا .

ويذهبُ الولدُ إلى أُمِّه ويقولُ لها :

ـ أُريدُ أنْ آكلَ ما خبَّأتِ لى .

فتقول له الأُم : وأىَّ شىءٍ خبَّأْتُ لك ؟

فيقول الولد : تفاح .

فتقولُ له الأُم وهى تَعْجَب :

ـ مَنْ أَخبرَك ، ولمْ يكُنْ معى أحد فى البيت ، لما خبَّأتُ لك التفاح .

فيقول لها الصَّبى : أخبرَنى عيسى بنُ مريم .

واستمرَّ عيسى بنُ مريمُ يُخبرُ الأَولادَ بما خبَّأتْ لهم أُمهاتُهم ، والأَولادُ يجدونَ ما يخبرهُم به عيسى ، فأحبَّه الأَولاد ، وتعجَّبت الأُمهاتُ مِن مقدرتِه على معرفةِ الْغَيْب .

٨

وأمرَ اللّه عيسى أنْ يدعوَ الناسَ إلى عبادةِ اللّه وحدَه لا شريكَ له . فخرجَ عيسى إلى بنى إسرائيل وقال لهم :

ـ إنى رسولُ اللّه إليكم ، أَدعوكم إلى طاعةِ اللّه الواحِد ، والعملِ الصَّالح ، وترْكِ الأَعمال الرديئة والمعاصى التى تُغضبُ اللّه .

فلم يَسمعوا لَه وهزأُوا منْ قولِه ، فقال لهم :

ـ إنى جئتكم بمُعجزةٍ من ربِّكم .

فقالوا له : وما هذه المعجزة ؟

قال لهم : « أَخلقُ لكم من الطِّين كهيئةِ الطَّيْر ، فأنفخُ فيه فيكونُ طيرًا بإذن اللّه ، وأُبْرِئُ الأَكْمَهَ والأَبْرَصَ وأُحْيِى الموْتَى بِإذنِ اللّه ، وأُنبِّئُكُم بما تأكلونَ وما تَدَّخِرونَ فى بيوتكُم » .

فارتفعت أصواتُ بنى إسرائيل :

- يا عيسى ، لا تستطيعُ أنْ تفعلَ ذلك .

فقال لهم : وإن فَعَلْتُه تؤْمِنوا بى وتصدِّقُونى ؟

فارتفعتْ أَصواتُ الناس : نعم نُصَدِّقُك .

فأخذَ عيسى قطعةً من الطِّين وجعلَها على شكلِ الطَّيْر ، ثم نفخَ فى الطِّين فدبَّت الرُّوحُ فيه ، وطار .

فصاح صائح : هذا سحر ، إنّه ساحر .

وقال آخر :

- أرنا يا عيسى كيفَ تردُّ البصرَ إلى الأعمَى .

وتقدم رجلٌ أعمى إلى عيسى ، فمرَّرَ يَدَهُ على عيْنيه ، ففتحَ الرجلُ عينيه ، ورأى النورَ ورأى الناسَ الذين حوله . ولكنَّ بنى إسرائيلَ لم يُؤْمِنوا بعيسى ولم يتّبعوه بل صاحوا :

- لنْ نُصدِّقكَ حتى تُحْيىَ الموتى .

وذهب عيسى إلى قبر ، وأَمرَ الميت أَنْ يقوم بإذن اللّه ، فقام الميتُ وخرجَ من القبْرِ وهو ينفضُ رأْسَه من التُّراب ، وانتظر عيسى أن يصدِّقَه بنو إسرائيل ويؤمنوا باللّه الذى أرسله ، ولكنّهم قالوا :

- إنَّك سحَرْتنا ، ولنْ نصدِّقَك أَبدا .

وانصرفوا من حوله وتركوه وحيدا .

٩

لمْ ييئس عيسى من بنى إسرائيل . وعاد إليهم يدعوهم إلى عبادة اللّه وحده ، فقال لهم :

- يا بنى إسرائيل إنى رسولُ اللّه إليكم ، مُصدِّقا لما بَيْنَ يدىَّ من التوراة ، ومُبَشِّرًا برسولٍ مِن بَعْدِى اسْمُهُ أحمد .

فقال له رجلٌ مستهزئا :

- يا عيسى ماذا أَدَّخِرَ فى بَيْتى ؟

فقال له عيسى :

ـ تدَّخِر فى بيتك كذا وكذا .

وذكر له ما يدَّخرهُ فى بيته ، فسكت الرجلُ ولم يتكلم ؛ لأنه وجد أن ما قاله عيسى صحيح .

وجاءَ العمْيانُ والمرضى إلى عيسَى جماعات جماعات ، فكان يرُدُّ إلَى العمْيان أبصارهم ، ويَشفى الْمَرْضى من أَمراضِهم ، ومع أنه كانَ يفعلُ هذه المعجزات ، لم يصدِّقه بنو إسرائيل ، فقال لهم :

« جئتكم بآيةٍ من ربِّكم ، فاتّقوا اللّه وأَطيعون . إنَّ اللّه ربى وربُّكم فاعْبُدوه ، هذا صراطٌ مستقيم » .

فقال الناس :

ـ هذا سِحر ، لنْ نصدقك أبدا .

قال عيسى :

« مَنْ أَنصارِى إلى اللّه » ؟ « قال الحَوارِيُّون : نحنُ

أَنصارُ اللّه ، آمَنّا باللّه ، واشهدْ بأَنّا مُسْلِمون » .

ورفعوا أَبصارَهم إلى السَّماءِ وقالوا :

« ربَّنا آمَنّا بما أَنْزَلْت ، واتَّبعْنا الرسول ، فاكتبْنا معَ الشَّاهِدين » .

١٠

وفى ذات يوم ، أَمرَ عيسى الحَوَاريِّين بالصِّيام ، فلما أَتَمُّوا مدَّتَه قالوا : « يا عيسَى بنَ مريم ، هل يَسْتَطيعُ ربُّكَ أَنْ يُنزِّل علينْا مائدةً منَ السماءِ » .

« قال : اتّقُوا اللّه إنْ كنتم مُؤْمِنين » .

« قالوا : نُريدُ أَن نأْكُلَ مِنْها ، وتَطْمَئِنَّ قلوبُنا ، ونَعْلَمَ أَنْ قدْ صدَقْتَنا ، ونكونَ عليْها مِنَ الشَّاهِدين » .

فقام عيسى ، وسأَل اللّه فى خُشوع :

« ربَّنا أنزِل علينا مائدةً من السماءِ تكون لنا عيدًا

لأَوَّلِنا وآخرِنا ، وآيــةً منــك وارْزُقْنــا وأَنــتَ خــيْرُ الرَّازِقين» .

« قـال اللّـه إنـى مُنزلُهـا عليكـم ، فمـن يكفـرْ بَعْـدُ منكم ، فإنى أُعذِّبُه عَذابًا لا أُعذِّبه أَحدًا من العالَمين» .

١١

خرج عيسى بن مريم والحَوارِيُّونَ حولَـه ، فلمـا رآه اليهودُ قالوا : جاءَ السَّاحرُ ابنُ السَّاحِرة .

فقال لهم عيسى :

ـ يا قوم ، إنِّى رسولُ اللّه إليكم ، فصدِّقونى .

فشتموه ، وقذفوه بالحجارة ، فقال لهم :

ـ يا معاشر اليهود ، إن اللّه يكرهُكم .

فقال قائل منهم :

ـ اقتلوا هـٰذا السـاحر ، اقتلـوه تَسْتَريحوا منـه ، إنـه

يَسُبُّكم كـلَّ يوم ويَشْتُمكُم ، وهـو يريــد أَنْ يُفَـرِّق بينكم .

فارتفعت أَصواتُ الناس :

ـ اقتلوه . اقتلوه .

فأَخذَه الحوراِيُّون ودخلوا بيْتًا من بيُوتِهـم ، وأَغلقـوا البـاب خَلْفَهُـم واستمرَّ بنــو إسـرائيل فـى هِيـاجهم يتحدَّثـون عـن قتلِــه ، وهجمـوا علـى بـاب البيـت وكسروه ، ودخلوا يصيحون فى غضب :

ـ اقتُلـوا هـٰذا السـاحر ، اقتلـوا مـن جـاءَ يخـدعُ ضعفاءَكم ، ويفرِّقُ بينكم .

وأَمسكوا أَحدَ أَصحابه وهمْ يحسبون أَنه عيسـى بـنُ مريم ، ويصيحون فى ثورة .

ـ اصلبُوه ، اصلبُوا عيسى ابنَ السَّاحِرة .

وأَخـذوه ونـاسٌ كثـيرون يسـيرون حولـه يَشــتمُونُه

وَيشتمون أُمه ، وَجاءُوا بخشبةٍ وصلَبوه عليها ، وأَخذوا يقذْفونه بالحجارةِ والدَّمُ يسيلُ منه ، وبقى المصلوبُ يتعذّب حتى مات ، وانصرف بنو إِسرائيل وهم يَحْسُبون أَنهم صلبوا عيسى بنَ مريم . وما قتلُوهُ وما صَلبوهُ ولكنْ شُبِّه لهم .

١٢

ترَكَ عيسى جُموعَ بنى إسرائيل الثّائرة الكافرة ، وسار وحده يفكّر فى بنى إِسرائيلَ الذين يَقْتُلون أَنبياءَهم ويَكذّبونهم ، وفيما هو سائرٌ يُفكّر إِذ قال اللّه له :

« يا عيسى ، إِنى مُتوفِّيكَ وَرافِعُكَ إلىّ ، ومُطَهِّرُكَ مِنَ الّذين كَفَروا ، وجاعِلُ الّذينَ اتّبَعُوكَ فوقَ الّذين كَفروا إِلى يوم القيامة ، ثم إِلىّ مَرْجِعُكم ، فأَحْكُم بَيْنكُم فيما كنتم فيهِ تخْتَلِفون » .